حركة التحرير العربية: أزمة عارضة أم بنيوية؟

في اطار التبادل والتفاعل السياسي والفكرى بين مختلف فصائل الحركة الوطنية والتقدمية العربية، نضع بين أيدى قرائنا هذا المقال الذى نشرته جريدة "الديموقراطي"، الناطقة باسم حزب البعث الديموقراطي الاشتراكي العربي في عددها التاسع لشهر أغسطس ١٩٨٢.

اذا كان الصمود البطولي النادر في تاريخ "الصراع العربي ـ الاسرائيلي" للثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية قد عرّى الواقع العربي حتى الجذور، بما فيه من تواطؤ وتخاذل وعجز وانهيار، ووضع الجماهير امام حقيقة الانظمة المتسلطة، وحقيقة الاوضاع التي قادت اليها جملة من الممارسات الماضية، فانه في صميم ذلك، قد كشف بشكل عياني جوهر الازمة في حركة التحرر العربية: انظمة وقوى، كل ذلك يلقي بثقله الضاغط على الجماهير للبحث في عوامل هذه الازمة وتفاعلاتها، وامكانات الخروج منها.

فوصول الواقع العربي الى قاع الانحدار والتراجع والتفسخ، ووقوف حركة التحرر العربية (بعموم فصائلها، وكحصائل حاصلة) عاجزة، مبعثرة امام حرب الابادة والتصفية.. يلقي الاضواء الساطعة، ليس على الجانب الرسمي في هذا الواقع وحسب، وانما في جانبه التقدمي والمعارض الشعبي، وفي مجمل الوضعية الراهنة التي كشف الاجتياح الصهيوني مدى عجزها وليونتها في مواجهته.

فقد قاتلت واستبسلت وصمدت الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية لاطول فترة عرفتها الحروب مع العدو الصهيوني ـ رغم الاختلال المريع

في القوى ـ وكان ذلك يفترض تحريك الاوضاع العربية برمتها باتجاه ازاحة كافة العراقيل التي تحول دون نجدة الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية، كما هو مقدر ومفهوم وطبيعي لاى شعب في العالم يواجه مثل هذا الخطر بحق.. لكن ذلك لم يحدث.. وكل ما جرى تعبيرات هزيلة اقل بكثير من الحد الادنى. (...).

الازمة بنيوية بالاساس

وهذه المسالة لا يمكن ان تبتسر وتقزم بوضع كل المسؤولية على الجانب الرسمي في الوضع، رغم اهمية ذلك، او بالقاء الازمة على مشجب مرحلة التراجع والانحسار.. والامبريالية والصهيونية والرجعية.. والظروف الموضوعية.. وكفى.. دون ان تبحث هذه الازمة في اساسها.. بكل مكوناتها وتفاعلاتها، وبالانطلاق من العامل الذاتي كحجر الزاوية، لان العوامل الاخرى من انظمة معادية وامبريالية وصهيونية.. وغيرها.. مهما بلغت من القوة والقدرة والشراسة.. يجب ان تعيشها حركة التحرر العربية منذ البدء وعلى طول خط صراعها التناحرى مع هذه القوى.. كقوة معادية بالاصل، سوف تلجأ الى استخدام الاسلحة التي تملكها، وجميع الاساليب التي تحقق انتصارها في هذا الصراع..

ولان الظروف الموضوعية، مهما كانت شدتها، وضعف نضجها، وقابليتها للعمل الثورى، فهي ايضا في علاقة جدلية مع العوامل الذاتية، وفعلها في عمليات الانضاج والبلورة وتسريع وتيرة الانضاج باتجاه مساراته التاريخية.

ولان الصراع يأخذ مبرراته وحيثياته واشكاله من طبيعة القوى المنخرطة فيه، عبر مرحلة تاريخية محددة.. فان القاء المسؤولية على جانب فيه، هو اقرار بالهزيمة، واقرار بالعجز يستلزم اعادة النظر جوهريا بأدوات واساليب الصراع، او اخلاء الطريق لقوى يولدها الواقع لاستمرار هذا الصراع وحسمه وفقا لحتميات التطور والتغيير. وهو ما تطرحه ازمة حركة التحرر العربية بآخر تجلياتها القائمة..

ذلك لان الازمة ليست جديدة او وليدة اليوم او الامس القريب، وليست قسرية او مفروضة بقوة الفعل الخارجي وحسب، بل انها ازمة تاريخية بنيوية تشمل القوى الطبقية التي عبرت عنها هذه الحركة، وطبعت قياداتها وايديولوجيتها، كما تشمل نهجها وافرازاتها في الممارسة، ضمن العلاقة الجدلية القائمة بين الموضوعي والذاتي.

لا شك في ان صعوبة العوامل الموضوعية وتشعبها في الوطن العربي، وتداخلها الكبير مع العوامل الخارجية وفعلها المؤثر.. قد اثرت بشكل كبير على نشأة ومسار ونتائج العوامل الذاتية وصولا الى الوضعية الراهنة من اشكال الازمة.

ان تاريخية التجزئة واتساعها وتشردمها.. وموضوعاتها اللاحقة في البنى الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.. وما تولده على كل صعيد، في حاضنة التخلف المريع للبنى الانتاجية والاجتماعية والثقافية.. وبالتالي، البلورات الطبقية وتشكيلاتها ومستويات وعيها، وحدودها، واشكال صراعها.. وفي حاضنة الاستبداد الشرقي وتاريخيته ومواصفاته وتاثيراته.. في ظل هيمنة امبريالية كثيفة وضاغطة.. وكيان صهيوني يشكل قاعدة دائمة للامبريالية.. ان تعقد هذه الظروف انما شكل التحدي الاكبر لحركة التحرر العربية التي لم تستطع الفعل باتجاه الانتصار.. وهو ما تدلل عليه وقائع اليوم.

فقد اثر ذلك بشكل جلي في نشأة حركة التحرر العربية، وطبيعة القوى التي تنظمت للقيادة، وفي الايديولوجيا المعومة، وجملة الافرازات الاخرى، بدءا من تسلم البورجوازيات التقليدية المتحالفة مع الاقطاع للسلطة.. ووقوفا عند التعبيرات البورجوازية الصغيرة وانشطاراتها وتصيراتها المتعددة الاشكال، فالازمة في الجانب الرئيسي منها، تكمن في هذه القوى بالذات.

ـ فالبورجوازيات التقليدية التي قادت مرحلة الاستقلال الوطني قد ولدت مجينة، مزيلة، قاصرة.. وبالتالي، لم تستطع ان تقوم بالثورة القومية التحررية الديموقراطية، بل وجدت في التجزئة مرتعا لها، فعملت على تاطيرها وتعميقها، كما وجدت في الهيمنة الامبريالية مجالا لتنمية نفوذها ومصالحها.. فوطدت علاقاتها بالراسمالية العالمية (ضمن علاقة التابع)، فلم تستطع مواجهة هذه الهيمنة، وبالتالي، اكدت قصورها وعجزها.. فكان سقوطها يتقاطع وذلك، ومع حركة التطور المستمرة..

ـ ولاسباب عديدة، تمكنت التعبيرات البورجوازية الصغيرة (عن طريق الانقلابات العسكرية في الغالب) من ان تتصدر المرحلة التالية.. وان تفرض نفسها كقائدة لحركة التحرر العربية، فكان طبيعيا ان تترك بصماتها على المرحلة، وان تشهد حركة انشطارات واسعة لم تنته بعد.

ونظرا لان البورجوازية الصغيرة تضم فئات عديدة مختلفة المشارب والمصالح والوعي والطموحات، حتى داخل الفئة الواحدة، ولان "التناقض عمادها" منذ كانت مسيرتها اللاحقة تعبيرا حيا عن هذه الطبيعة، حيث تجلت في مستويات نضالها وتصديها للامبريالية وهيمنتها وتواجداتها، وفي بناءاتها الداخلية، وسياساتها الخارجية، وفي مجمل نهجها في المسالة الديموقراطية والاجتماعية.

فعندما كانت مصالحها تلتقي ومصالح اغلبية الشعب (قبل استلام السلطة)، جاءت شعاراتها وبرامجها معبرة عن مصالح الاغلبية.. فتمكنت (لاسباب ذاتية وموضوعية) من تصدر قيادة مرحلة الصعود القومي التحرري..

ـ ونتيجة الشكل الذي وصلت فيه الى السلطة (الانقلابات العسكرية)، فغلبة العسكريين والمثقفين وابناء الفلاحين فيها.. فقد زاد ذلك من تناقضاتها، ومنح ممارساتها طابعا شعاريا، فوقيا وقمعيا ومتخلفا في بعض الجوانب..

ـ وفي غمار مواجهاتها للنفوذ الامبريالي، ومرحلة البناء، كان تناقضها يبرز بشكل اوضح، كما واكتسبت بفعل ذلك، مواصافة جديدة طبعتها في مرحلة الانشراخات الكبرى، ففي مرحلة السلطة وامتحان شعاراتها ومقولاتها.. راحت تعمل لتحقيق مصلحتها اساسا... فتناقضت بذلك مع مصالح غالبية الشعب.. الامر الذي ادى الى ايجاد نوع من القطيعة الشعبية، كانت تتجلى بتقلص قاعدتها شيئا فشيئا.. والذي حاولت معالجته بالمزيد من الاجراءات الفوقية والقمعية.. عبر التاميمات، وايجاد القطاع العام والاصلاح الزراعي.. وغيرها من الاجراءات التي اتخذتها على صعيد التحولات الاقتصادية، وعبر تشكيل جيش كبير من الاجهزة الامنية والعسكرية والادارية لحماية نفسها، وقمع حركة المعارضة تحت دعاوى وتنظيرات كثيرة..

ـ ولانها لم تستطع مواجهة الامبريالية وتواجداتها ونفوذها ـ حتى النهاية ـ ولم تقدر على حسم الصراع مع الكيان الصهيوني الذي الحق بها هزيمة كبيرة في عدوان حزيران ١٩٦٧، فقد هربت الى الامام باللجوء الى الشعارية (احدى صفاتها الرئيسية)، فاستبدلت مواجهة العدو الامبريالي ـ الصهيوني بالعديد من الشعارات والمفاهيم التي لم تستطع ترجمتها في ممارساتها..

ـ ولعوامل بنيوية واخرى خارجية، عجزت عن محاربة التجزئة، والقيام

بالثورة القومية الديموقراطية، فتعززت لديها بفعل ذلك وآثاره التراكمية عليها، الميول والتوجهات القطرية والعصبوية والانعزالية.. وهو ما تترجمه بناءاتها الداخلية، وتوجهاتها الخارجية تجاه بقية فصائل حركة التحرر العربية.

ـ ولهذه العوامل مجتمعة، عمقت وبلورت السلطة فيها اتجاهات عديدة، كانت تتمحور بشكل عام باتجاهين رئيسيين: اتجاه ارتدادي يميني يصبو الى الالتحاق بالبورجوازية وفق مواصفاته ووعيه وشكل السلطة والتحكم فيها، واتجاه آخر يتطلع الى تجاوز الازمة بالانتماء الى الفكر الثوري ومواقع الطبقة العاملة..

ـ وعلى قاعدة هزيمة ١٩٦٧، وثقل الهيمنة الامبريالية وضغوطاتها المتعددة الاشكال، ودور الكيان الصهيوني البارز في اللجم والضرب والاجهاض، تمكنت القوى الارتدادية اليمينية من الغلبة والانتصار في اهم مواقع حركة التحرر العربية لتنشر فكرها وتسيطر على المرحلة.. لبدء الانحسار والتراجع والانهيارات المتواصلة.

تعبيرات الازمة

ان العجز والفشل في انجاز الثورة الوطنية القومية الديموقراطية بمهامها الرئيسية قد تجلى باشكال متعددة من الممارسات اللاحقة، وفتح الطريق واسعا امام مرحلة الارتداد والانحسار والانهيار القائمة منذ سنوات عديدة.. وصولا الى هذه الحالة من الخيانة والتواطؤ والتخاذل والفشل في تحرير الارض، وتحقيق الوحدة القومية، وبناء الاقتصاد الوطني المستقل، وتحديث وتطوير العلوم والثقافة وبنى المجتمع، وفي اقامة الديموقراطية الحقيقية.. انما ادى الى نتائج بالغة الدلالة على مختلف الاصعدة، خاصة وان القوى النافذة في حركة التحرر العربية لم تحاول ان تعالج عوامل هذا الفشل عبر اعادة النظر في مجمل الاسباب التي قادت اليه.. وكرس نمطية من الاستبدادية والديكتاتورية الفاشية التي تحكم قبضتها اليوم على معظم وطننا:

فعلى صعيد هذه القوى، تميّزت مرحلة الفشل بردود فعل كانت تحاول تهريب الازمة أو تجاوزها بالقفز فوقها، وبالمزيد من التعنت في النهج الذى قاد اليها، فبرزت لديها وتكرست، التوجهات القطرية التي تتحدد باطار حدود القطر ومصالح السلطة فيه، وتعززت الروح العصبوية والتمسك بمقولات "الحزب الواحد" و"القائد" و"مركزية السلطة" ورفض الحوار والاعتراف والتعاون مع القوى الاخرى، فتوسعت القطيعة مع الشعب ودائرة المعارضة والرفض السلبيين.. مما

سهل كثيرا، الانقضاض على هذه القوى وتحقيق النصر عليها من قبل القوى اليمينية المرتدة فيها.

وعلى صعيد الشعب، فقد اصيب بخيبة امل كبرى تناولت اعز طموحاته، فلا الوحدة العربية تحققت، ولا الارض تحررت، ولم ينته الاستغلال او حلت قضاياه الرئيسية.. بل ان المواطن يتعرض للمزيد من التمزق والتفتت على اسس مذهبية وطائفية وغيرها، والاحتلال الصهيوني يكرس نفسه في الضفة الغربية والقطاع والجولان، ويفرض الاستسلام على اكبر دولة عربية، ويقوم باقتضام اجزاء اخرى على طريق اقامة "اسرائيل الكبرى".. وطموحات الشعب في الحرية والديموقراطية اجهضت وحل محلها قمع شامل يتناول المجتمع في جميع الاصعدة..

وهكذا يعيش الشعب حالة من الاحباط، كما يفرض عليه نمط من المجتمع الاستهلاكي الذى يحاول اغراقه في امواج متطلباته اليومية، وقيمه وعلاقاته، وكل ذلك في اطار عمل منظم لقتل مواطنيته، وانتزاع جذوره القومية والنضالية..

✸

وعندما مورست مرحلة التراجع والانحسار، وتعززت اسسها ومرتكزاتها في الواقع العربي، بدت حركة التحرر العربية، بانظمتها وقواها، اكثر عجزا وضعفا وهامشية في مواجهة هذه المرحلة والرد عليها.

وبينما راحت بعض اقسامها تتعامل مع هذه المرحلة، مندرجة فيها الى هذا الحد او ذاك، ومنتقلة ـ على هذه الارضية ـ من ازمة الى اخرى، ومن ضعف الى ضعف، لم تستطع بعض اقسامها الاخرى التي رفضت التعايش مع هذه المرحلة ان تقوم بدور كبير في التصدى لها، بل اثرت فيها كثيرا، ليس اوضاع القمع والملاحقة والضربات المتوالية ومناخات الردة والاستسلام وحسب، وانما اوضاعها الذاتية المتفاعلة مع تلك الاوضاع، فانتقلت الى حالة اكثر تازما، حتى اذا ما جاء الاجتياح الصهيوني للبنان، وقفت عاجزة عن القيام بالحد الادنى في نجدة الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية.. الامر الذى سيفاقم من هذه الازمة، ومن حالة التشتت والضعف والهامشية التي تعيشها.. ما لم تحاول الاستفادة من هذه الدروس الكبيرة والعمل الجماعي المخلص لتجاوز ازماتها..

✸

وفي الحقيقة، فان غياب الديموقراطية، حتى عند معظم هذه الفصائل، وفي تعاملها مع غيرها، وغياب روح العمل الجماعية، واستمرار الروح العصبوية، والذاتيات الحزبوية، وسلوك الاستعلاء والاستخفاف بالشعب، وعدم تمكنها من صياغة وترجمة بدائلها الجبهوية أمام الوضع الشعبي المتفاقم، والاحتلال الصهيوني الذى يهدد مصير الوطن.. انما تلقي اليوم أعباء جديدة ومهمات كبيرة ملحة على هذه الفصائل، كمقدمات أساسية لمواجهة مهامها الاخرى، والا فان مبررات استمرارها يصبح أمرا مشكوكا فيه، وستتجاوزها الجماهير بحثا عن تعبيرات قادرة على تحقيق مصالحها وطموحاتها.. وبغض النظر أحيانا، عن طبيعة هذه التعبيرات..

ـ ان اعادة نظر جدية في البنى الطبقية والتنظيمية والفكرية القائمة، وفي النهج الذى ساد طيلة هذه السنوات باتجاه تلاؤم هذه البنى الطبقية مع الالتزام بالفكر الثورى ومقتضيات المرحلة وتجربة حركة التحرر العربية، والالتزام بالديموقراطية نهجا كاملا في الحياة الفردية والداخلية، وفي التعامل مع القوى الاخرى والجماهير، والتوجه الجاد نحو العمل الجبهوى الديموقراطي بكل ما يعنيه من تجاوز الحساسيات والخلافات الثانوية والعصبوية والذاتيات الحزبوية.. في سبيل انهاض الجبهات الوطنية الديموقراطية في كل قطر، والجبهة القومية على الصعيد العربي.. ان ذلك مهمة راهنة لا ترتبط بمدى الجدلية في مواجهة أعباء المرحلة وخطر الابادة والتصفية لقضايا النضال العربي وحسب.. وانما ترتبط بجدوى وأهلية استمرار هذه القوى.. خصوصا وأن مرحلة جديدة تؤشر اليها مسارات الاجتياح الصهيوني ونتائجه، ستطرح عاجلا أم آجلا، هذه الاعادة الجذرية في كل ما هو قائم.. وبالبدء في القوى التي تتنطح لمهام التغيير..

وعلى هذه القاعدة من الوعي والشعور بالمسؤولية، ومن الشجاعة في النقد والنقد الذاتي.. ستتوفر الاسلحة الانسب لمواجهة أعداء الشعب.. بدءا بالانظمة الرجعية والبورجوازية البيروقراطية الفاشية والطائفية.. ووصولا بالوجود الامبريالي ـ الصهيوني..

*